## كارلوس فوينتس

# أورا



ترجمة

خالد الجبيلي

طوى
للنشر والإعلام
منشورات الجمل

رواية

## كارلوس فوينتس

# أورا



روايــة

ترجمة

**خالد الجبيلي**

منشورات الجمل

طوى للنشر والاعلام

كارلوس فوينتس: أورا، رواية

ولد **كارلوس فوينتس**، أحد كبار وأهم الروائيين المكسيكيين، في بانما سيتي عام ١٩٢٨، ودرس في المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية وجنيف، وفي مدن عديدة في أمريكا الجنوبية. وعمل سفيراً لبلده لدى فرنسا، وله أكثر من عشر روايات. وقد حصل على جوائز عديدة على إنجازاته، منها الجائزة الوطنية المكسيكية للأدب عام ١٩٨٤، وجائزة سرفانتس عام ١٩٨٧، ووسام الشرف عام ١٩٩٢. من أعماله البارزة رواية «**نسر العرش: كرسي الرئاسة**»، ترجمها إلى العربية مترجم هذه الرواية.

Carlos Fuentes: *Aura*, 1962


كارلوس فوينتس: أورا، رواية، ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى ٢٠١٣





تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

ولـ طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 00966556687678





Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الرجل يصطاد ويكافح.
المرأة تكيد وتحلم؛
إنها أمّ الخيال،
أمّ الآلهة.
لديها بصيرة،
أجنحة تمكّنها من التحليق
إلى اللامتناهي
في عالم الرغبة والخيال . . .
الآلهة مثل الرجال:
يولدون ويموتون
على صدر امرأة . . .

جول ميشيليت

# ١

تقرأ الإعلان: لا يمكنك أن ترى عرضاً كهذا كلّ يوم. تقرأه وتعيد قراءته. يبدو أنه إعلان أُعِدَّ خصيصاً لك، لا لأحد غيرك. حتى إنك لا تلاحظ أن رماد سيجارتك يسقط في كوب الشاي الذي طلبته في هذا المقهى الرخيص غير النظيف. تعيد قراءته. «مطلوب شاب متخصص في التاريخ، أنيق، يعمل بضمير، يجيد اللغة الفرنسية الدارجة إجادة تامة». شاب... يجيد اللغة الفرنسية، يُفضَّل أن يكون قد عاش في فرنسا فترة من الزمن... «أربعة آلاف بيزو في الشهر، جميع وجبات الطعام، غرفة مكتب - غرفة نوم مريحة». لم يبق إلا أن يضعوا اسمك. ينبغي إضافة كلمتين أخريين في الإعلان، بالبنط الأسود العريض: فيليب مونترو، مطلوب فيليب مونترو، الحاصل على منحة دراسية في السوربون، المتخصص في التاريخ والمحشو رأسه بوقائع تاريخية عديمة النفع، المعتاد على التنقيب في وثائق حال لونها إلى الأصفر. معلّم غير متفرغ في المدارس الخاصة، ويتقاضى تسعمائة بيزو في الشهر. لو قرأت

ذلك، لساورك الشك، واعتبرت الأمر محض نكتة. «العنوان، دونسيليس ٨١٥». لا يوجد هاتف. يرجى الحضور شخصياً.

تترك إكرامية، تتناول حقيبتك، تنهض. تتساءل هل من شاب آخر متخصص في التاريخ، حالته تشبه حالتك، وقد قرأ الإعلان نفسه، فسبقك وشغل الوظيفة. تمشي إلى ناصية الشارع، محاولاً تناسي هذه الفكرة. وفي أثناء انتظارك الحافلة، تردد التواريخ التي يجب أن تكون على رأس لسانك، لكي يحترمك تلاميذك الذين يغالبهم النعاس. تصل الحافلة، ولا تتوقف عن التحديق في طرفَي نعليك السوداوين. يجب أن تُعِدَّ نفسك جيداً. تضع يدك في جيبك، وتبحث بين القطع النقدية، وفي النهاية، تستل ثلاثين سنتافو. يجب أن تكون مستعداً. تمسك القضيب المعدني - تتباطأ الحافلة لكنها لا تتوقّف - وتصعد إلى الحافلة قفزاً. ثمّ تشق طريقك إلى الأمام، وتدفع للسائق الثلاثين سنتافو، وتحشر نفسك بين الركاب الواقفين في الممر. تتمسّك بالقضيب الحديدي في الأعلى، وتضغط على حقيبتك بقوة تحت ذراعك اليسرى. لاشعورياً تضع يدك اليسرى في جيبك الخلفي حيث تضع محفظتك.

اليوم مثل أيّ يوم آخر. لا تتذكّر الإعلان إلا في صباح اليوم التالي، عندما تجلس في المقهى ذاته، وتطلب طعام الإفطار، وتفتح صحيفتك. عندما تصل إلى قسم الإعلانات تلقي نظرة أخرى على الإعلان: شاب متخصص في التاريخ. لا

تزال الوظيفة شاغرة. تقرأ الإعلان ثانية، وتقرأ الكلمات الأخيرة ببطء: أربعة آلاف بيزو.

تُفاجأ عندما تعرف أن أحداً يعيش في شارع دونسيليس. كان يخيّل إليك دائماً أن لا أحد يعيش في حي المدينة القديم. تسير الهوينى، تبحث عن الرقم ٨١٥ في ذلك الحيّ الذي يضم بيوتاً كولونيالية كبيرة قديمة، تحولت جميعها إلى ورشات لتصليح السيارات، ومحلات لبيع المجوهرات، ومحلات لبيع الأحذية، وصيدليات. غُيِّرت الأرقام، وطليت، وأصبحت غير واضحة المعالم. فقد أصبح الرقم ١٣ أ بجانب الرقم ٢٠٠. وهناك لوحة قديمة كتب عليها الرقم ٤٧ فوق خربشة لطخت بالفحم وأصبحت الآن ٩٢٤. ترفع بصرك وتنظر إلى الطابق الثاني في هذه البيوت. هناك، كلّ شيء لا يزال على حاله. لا تزعجها صناديق الحاكي. ولا تضيئها أضواء الشوارع الزئبقية. لا تؤثر السلع الرخيصة الممتدة على طول الشارع على ذلك المستوى العلوي، وعلى الانسجام الباروكي للأحجار المنحوتة، وعلى القديسين المنحوتين من الحجارة وقد تكسرت أطرافهم، وجثم الحمام على أكتافهم، وعلى الشرفات ذات النوافذ المغطاة بالغربال، والمزاريب النحاسية، والميازيب الناتئة المنحوتة؛ وعلى الستائر المائلة إلى اللون الأخضر التي تعتم النوافذ الطويلة؛ في تلك النافذة التي ينسحب فيها شخص إلى الوراء عندما يراك. تحدّق في عريشة الكرمة الخيالية المحفورة

على باب المدخل، ثمّ تُنزل عينيك إلى الحائط المتقشّر، وتكتشف الرقم ٨١٥ الذيَ كان سابقاً ٦٩.

عبثاً تقرع الباب بمقرعة ذات رأس كلب نحاسي، مهترئة وشديدة النعومة إلى حدّ أنها أصبحت تشبه رأس كلب جنين في متحف علم الطبيعة. يبدو كأنّ الكلب يكشّر عن أنيابه في وجهك، فتترك القطعة المعدنية الباردة. يُفتح الباب من أول دفعة خفيفة بأصابعك، لكن قبل أن تدخل، تلقي نظرة أخيرة من وراء كتفك، عابساً في رتل طويل من السيارات المتوقّفة وهي تهدر، تزمّر، وتتجشّأ أدخنة نفاد صبرها. تحاول أن تحتفظ بصورة وحيدة عن ذلك العالم الخارجي اللامبالي.

تغلق الباب وراءك، وتحدّق في زقاق معتم مسقوف. لا بد أنه باحة من نوع ما، لأنك تشمّ رائحة عفونة ورطوبة الجذور المتعفنة، رائحة النعاس الكثيفة. لا يوجد ضوء يمكن أن يوجّهك، وبينما تبدأ بالتفتيش في جيب معطفك عن علبة ثقاب، يتناهى إليك صوت حاد رفيع من بعيد: «لا، ليس من الضروري. إمش ثلاث عشرة خطوة من فضلك، حتى تصل إلى بئر سلم على يمينك. إصعد، من فضلك. يوجد اثنتان وعشرون درجة. عدّها».

ثلاث عشرة. إلى اليمين. اثنتان وعشرون.

رائحة رطوبة النباتات تغمرك وأنت تعدّ خطواتك، أولاً

على الدرجات الحجرية، ثمّ على الدرجات الخشبية الاسفنجية بسبب الرطوبة، التي تصدر صريراً. تعدّ بصوت واطئ اثنين وعشرين، ثم تتوقّف، وعلبة الثقاب في يدك، والحقيبة تحت ذراعك. تقرع باباً تهبّ منه رائحة صنوبر قديم.

لا توجد مقرعة على الباب. وأخيراً تدفعه وتفتحه. يمكنك أن تشعر الآن بسجادة تحت قدميك، سجادة رقيقة، ممدودة على نحو سيّئ، تجعلك تتعثّر، وتكاد تسقط. ثمّ تلاحظ الضوء المائل إلى الرمادي المتسلل الذي يكشف بعض الثنيات.

«سنيورا»، تقول، لأنه يبدو أنك تتذكر صوت امرأة. «سنيورا...»

«اتّجه إلى اليسار الآن. أول باب. تفضل».

تدفع الباب وتفتحه: لا تتوقّع أن يكون مغلقاً بالشبك. تعرف أنه سيفتح بدفعة واحدة. تصبح الأضواء المتناثرة المتفرّقة كالضفيرة في رموشك، وكأنك تراها من خلال شبكة حريرية. وكلّ ما تتبينه عشرات من الأضواء الوامضة. وأخيراً، يمكنك أن ترى أنها أضواء أيقونات، وضعت جميعها على حوامل، أو عُلّقت بين ألواح متباعدة على نحو مستو، تلقي وهجاً باهتاً على أدوات فضّية، وقوارير بلّورية، ومرايا بإطارات ذهبية. ثمّ ترى السرير في الظلّ في الخلف، وحركة ضعيفة ليد يبدو أنها تشير إليك.

لكنك لا تستطيع أن ترى وجهها حتى تولي ظهرك لتلك المجرة من الأنوار الدينية. تتعثّر بقدم السرير، وتضطر للالتفاف حوله حتى تصل إلى رأس السرير. هيئة صغيرة تكاد تضيع في ضخامتها. عندما تمدّ يدك، لا تلمس يداً أخرى، بل تلمس أذني وفراء مخلوق يمضغ، بصمت وباستمرار، يحدّق فيك بعينيه الحمراوين المتوهجتين. تبتسم وتمسّد الأرنب القابع بجانب يدها. أخيراً، تصافحها، وتبقى أصابعها الباردة طويلاً في راحة يدك المتعرّقة.

«أنا فيليب مونترو. قرأت إعلانك».

«نعم، أعرف، آسفة، لا توجد كراسي».

«لا بأس. لا تكترثي لذلك».

«جيد. دعني أراك. لا، لا أستطيع رؤيتك جيداً. استدر نحو الضوء. هذا جيد. ممتاز».

«لقد قرأت إعلانك...»

«نعم، طبعاً. هل تظن أنك تمتلك المؤهلات الكافية؟ هل درست؟»

«في باريس، يا سيدتي».

«آه، نعم، هذا يسعدني، دائماً، دائماً، دائماً أسمع

ذلك. . . نعم. . . كما تعرف. . . كنا معتادين. . . وبعد. . .»

تتحرّك جانباً لكي يُظهرك الضوء المنبعث من الشموع والانعكاسات المنبعثة من الفضة والكريستال والقلنسوة الحريرية التي لا بد أنها تغطي رأساً يكسوه شعر شديد البياض، ويؤطّر وجهاً عجوزاً إلى حدّ أنه يكاد يكون «طفولياً». وجسمها كله مدّثر بالملاءات، تتكئ على وسادات من الريش، وياقتها البيضاء العالية مزررة بإحكام، يستر كلّ شيء ماعدا ذراعيها اللتين يغطيهما شال، ويداها الشاحبتان مرخيتان فوق بطنها. يمكنك أن تحدّق في وجهها حتى تجعلك حركة يصدرها الأرنب تنظر خلسة إلى فتافيت، فتافيت خبز متناثرة فوق حرير الوسادات الحمر المهترئة.

«سأدخل مباشرة في صلب الموضوع. لم تعد أمامي سنوات كثيرة، سينيور مونترو، لذلك قرّرت أن أخرق قاعدة ثابتة وأضع إعلاناً في الصحيفة».

«نعم، لهذا السبب أنا هنا».

«طبعاً. إذاً قبلت».

«حسناً، أريد أن أعرف المزيد».

«نعم. إنك تتساءل».

تراك وأنت تلقي نظرة على الطاولة الصغيرة المنتصبة إلى

جانب السرير، القناني المختلفة الألوان، الكؤوس، ملاعق الألمنيوم، صفّ علب الأدوية، الأكواب الأخرى - جميعها ملطخة بسوائل تميل إلى اللون الأبيض - على الأرض في متناول يدها. ثمّ تلاحظ أن السرير يكاد يكون مرفوعاً فوق مستوى الأرضية. وفجأة يقفز الأرنب إلى الأسفل، ويختفي في الظلّ.

«يمكنني أن أدفع لك أربعة آلاف بيزو».

«نعم، هذا ما ذكره الإعلان اليوم».

«إذاً نُشر».

«نعم، نُشر».

«الأمر يتعلق بمذكرات زوجي، الجنرال يورينت. يجب أن أعمل على ترتيبها قبل أن أموت. أريد أن أنشرها. لقد قرّرت ذلك منذ فترة قصيرة».

«لكن الجنرال نفسه؟ ألا يستطيع أن. . .».

«توفي منذ ستين سنة، يا سينيور. إنها مذكراته التي لم يتمكن من إنهائها. يجب إكمالها قبل أن أموت».

«لكن. . .»

«أستطيع أن أخبرك كلّ شيء. ستتعلّم كيف تكتب بأسلوب زوجي. ما عليك إلا أن ترتّب مخطوطاته وتقرأها حتى تُسحر بأسلوبه ووضوحه...».

«نعم، أفهم».

«ساغا، ساغا. أين أنت؟ هنا، ساغا».

«من؟»

«رفيقتي».

«الأرنب؟»

«نعم. إنها ستعود».

عندما ترفع عينيك اللتين تبقيهما مطرقتين، ترى شفتيها المطبقتين، لكنك تستطيع أن تسمع كلماتها ثانية - «إنها ستعود» - وكأن السيدة العجوز تلفظها في تلك اللحظة. لا تزال شفتاها مطبقتين. تلتفت وراءك ويكاد الوهج المنبعث من الأيقونات يعميك. عندما تنظر إليها، ترى مرة أخرى، أن عينيها مفتوحتان على وسعهما، وترى أنهما صافيتان، رقيقتان، ضخمتان، بنفس اللون الأبيض المائل للأصفر حولهما، ولا تفسد ذلك الصفاء سوى النقاط السود في بؤبؤي عينيها. وبعد لحظة تضيع في الطيّات الثقيلة لجفنيها المنخفضين، وكأنها تريد أن تحمي تلك النظرة المتوارية وراء كهفها الجاف.

«إذاً ستمكث هنا. غرفتك في الطابق العلوي. إنها مشمسة».

«من الأفضل ألا أزعجك، سنيورا. يمكنني أن أقيم حيث أعيش الآن وأعمل على المخطوطات هناك».

«شرطي أن تبقى هنا. لم يبق أمامنا الكثير من الوقت».

«لا أعرف إذا...»

«أورا...»

تتحرك المرأة العجوز لأول مرة منذ أن دخلت غرفتها. عندما تمدّ يدها مرة أخرى، تحسّ بذلك التنفّس الهائج، المنفعل، بجانبك، ويد أخرى تمتدّ لتلمس أصابع السنيورا. تتطلع حولك وترى فتاة تقف هناك، فتاة لا تستطيع رؤية جسمها بكامله لأنها تقف بالقرب منك تماماً. لم يكن وصولها متوقّعاً، ومن دون أدنى صوت - ولا حتى تلك الأصوات التي لا يمكن سماعها، لكنها تكون حقيقية في جميع الأحوال لأنك لا تستطيع أن تتذكّرها بعد ذلك مباشرة، لأنها بالرغم من كلّ شيء، أعلى من الصمت الذي يرافقها.

«قلت لك إنها ستعود».

«من؟»

«أورا. رفيقتي. ابنة أختي».

«مساء الخير».

تومئ الفتاة، في اللحظة نفسها، تقلّد السيدة العجوز إيماءتها.

«السنيور مونترو. سيقيم معنا».

تخطو بضع خطوات حتى لا يعميك الضوء المنبعث من الشموع. عينا الفتاة لا تزالان مغمضتين، واضعة يديها على خصرها. إنها لا تنظر إليك في بادئ الأمر، لكنها تفتح عينيها شيئاً فشيئاً، وكأنها تخشى الضوء. تستطيع أخيراً أن تتبين أن هاتين العينين خضراوان بلون البحر، وأنهما تندفعان كموجتين صاخبتين، ثم تتكسران، وتتحولان إلى زبد، ثمّ تهدآن ثانية، لتندفعا مرة أخرى مثل موجة. تنظر إليهما وتقول لنفسك إن هذا ليس حقيقياً، لأنهما عينان خضراوان جميلتان مثل جميع العيون الخضر الجميلة التي عرفتها في حياتك. لكنك لا تستطيع أن تخدع نفسك: فهاتان العينان تندفعان كالأمواج، تتغيّران، وكأنهما تعرضان أمامك مشهداً طبيعياً لا يراه ولا يرغبه أحد سواك.

«نعم. سأعيش معكما».

# ٢

تضحك المرأة العجوز بحدّة وتقول لك إنها تشعر بالامتنان للطفك، وإن الفتاة ستريك غرفتك. إنك تفكّر في الراتب الذي يبلغ أربعة آلاف بيزو، وكيف سيكون العمل لطيفاً لأنك تحبّ العمل الذي ينطوي على بحوث متأنية، والذي لا يحتاج إلى جهد جسدي، ولا الانتقال من مكان إلى آخر، ولا الالتقاء بأناس لا تريد أن تلتقي بهم. إنك تفكّر في ذلك وأنت تتبعها إلى خارج الغرفة، وتكتشف أنّ عليك أن تتبعها بأذنيك لا بعينيك: تتبع صوت حفيف تنورتها، حفيف قماش التفتا، وتعتريك رغبة جامحة الآن للنظر في عينيها ثانية. تصعد الدرجات وراء ذلك الصوت في الظلام، وتظل غير معتاد على العتمة. تتذكّر أن الساعة لا بد أن تكون السادسة مساء تقريباً، ويفاجئك فيض النور عندما تفتح أورا باب غرفتك - باب آخر من دون مزلاج - وتتنحّى جانباً لتقول لك: «هذه هي غرفتك. ننتظرك على العشاء بعد ساعة».

تبتعد بذلك الحفيف الخفيف الذي ينبعث من تنورتها التفتا، ولا تتمكن من رؤية وجهها مرة أخرى.

تغلق الباب وترفع بصرك، وتنظر إلى الكوة التي هي بمثابة السقف. تبتسم عندما تجد أن ضوء المساء مبهر بالمقارنة مع الظلام الذي يغمر جنبات البيت، وتبتسم مرة أخرى، عندما تختبر الفراش على السرير المعدني المذهّب. ثمّ تجيل النظر في أرجاء الغرفة: سجادة حمراء من الصوف، وورق جدران زيتوني وذهبي اللون، وكرسي من دون مساند مكسو بمخمل أحمر، وطاولة مكتب قديمة من خشب الجوز يكسوها جلد أخضر في أعلاها، ومصباح قديم من ماركة أرغاند بوهجه الناعم لكي ينير الليالي التي ستمضيها في البحث، ورف كتب فوق الطاولة في متناول يدك. تسير إلى الباب الآخر، وعندما تدفعه وتفتحه، تكتشف حمّاماً قديم الطراز: حوض حمام بأربعة أرجل وقد رسمت أزهار صغيرة على الخزف، وحوض يدوي أزرق، ومرحاض قديم. تنظر إلى نفسك في المرآة البيضوية الكبيرة القائمة على باب الخزانة - إنها مصنوعة أيضاً من خشب الجوز - في مدخل الحمّام. تحرّك حاجبيك الثقيلين وشفتيك الغليظتين العريضتين، ويغبّش نَفَسُك المرآة. تغمض عينيك السوداوين، وعندما تفتحهما ثانية، تصبح المرآة صافية. تكفّ عن حبس أنفاسك، وتخلل بيدك شعرك الأسود الخفيف. تتلمس جانب وجهك، وخديك الناعمين؛ وعندما تخفي أنفاسك وجهك ثانية، تردد اسمها: «أورا».

بعد أن تدخن سيجارتين وأنت مستلق على السرير،

تنهض، وترتدي سترتك، وتمشّط شعرك. تدفع الباب وتفتحه وتحاول أن تتذكر الدرب الذي تبعتها فيه عندما صعدت إلى الطابق العلوي. تريد أن تترك الباب مفتوحاً حتى يوجّهك ضوء المصباح، لكنك تكتشف أن هذا الأمر مستحيل لأن النابض يغلقه مباشرة وراءك. يمكنك أن تستمتع باللعب بذلك الباب، يتأرجح جيئة وذهاباً. لكنك لا تفعل ذلك. يمكنك أن تأخذ المصباح معك إلى الطابق السفلي. لكنك لا تفعل ذلك. سيكون هذا البيت غارقاً في العتمة على الدوام، ويجب أن تتعلّم جنباته، وتعيد تعلّمه باللمس. تتلمّس طريقك مثل ضرير، ذراعاك ممدوتان، تتلمّس طريقك على طول الحائط، وبالصدفة تعتلق مفتاح الضوء. تتوقّف وتطرف عينيك في وسط تلك القاعة الطويلة الفارغة المضيئة. وفي نهايتها، يمكنك رؤية الدرابزين وبئر الدرج الحلزوني.

تعدّ الدرجات وأنت تهبط: عادة أخرى يجب أن تتعلّمها في بيت السنيورا يورينت. تخطو خطوة إلى الوراء عندما ترى عينَي الأرنب المحمرتين وهو يدير ظهره لك، ويثب مبتعداً.

ليس لديك وقت لتقف في البهو في الطابق السفلي، لأن أورا تنتظرك عند باب زجاجي ملون موارب، تحمل بيدها شمعداناً. تسير نحوها، تبتسم، لكنك تتوقّف عندما تسمع عويلاً ممضاً ينبعث من عدة قطط - نعم، تقف بجانب أورا وترهف السمع، لتتأكد من أنها قطط - ثم تتبعها إلى الردهة.

«إنها القطط»، تقول لك أورا وتضيف، «يوجد جرذان كثيرة في هذا الجزء من المدينة».

تجتاز الردهة: قطع أثاث منجّدة بحرير باهت. خزائن ذات واجهات زجاجية تضم تماثيل خزفية صغيرة، وساعات موسيقية، وأوسمة، وكرات زجاجية، وسجادات ذات رسوم فارسية، وصوراً لمشاهد ريفية، وستائر مخملية خضراً. أورا ترتدي فستاناً أخضر.

«هل غرفتك مريحة؟»

«نعم. لكن يجب أن أجلب أغراضي من المكان الذي...»

«لا لزوم لذلك. لقد ذهب الخادم للتو لإحضارها».

«لم يكن من الضروري تجشم هذا العناء».

تتبعها إلى غرفة الطعام. تضع الشمعدان في منتصف الطاولة. تبدو الغرفة رطبة وباردة. الحيطان الأربعة مغطاة بالخشب الداكن، المحفور بالأسلوب القوطي، مزخرف بأقواس وأشكال وورود كبيرة. توقّفت القطط عن المواء الصاخب. عندما تجلس، تلاحظ أنه أُعِدَّت أربعة أماكن للجلوس. ويوجد صحنان كبيران مغطّيان وقنينة وسخة قديمة.

ترفع أورا الغطاء عن أحد الصحون. تتنشق الرائحة اللاذعة

المنبعثة من الكبد والبصل اللذين تقدمهما لك، ثمّ تلتقط القنينة القديمة وتملأ الكؤوس الزجاجية المزخرفة بذلك السائل الأحمر السميك. بدافع الفضول، تحاول قراءة الملصق على قنينة النبيذ، لكن الوسخ يحجبها. تقدم لك أورا قليلاً من البندورة (الطماطم) المشوية من الصحن الآخر.

«اعذريني»، تقول وأنت تنظر إلى المكانين الإضافيين، الكرسيين الفارغين، «لكن هل تنتظرين شخصاً آخر؟»

تواصل أورا وضع البندورة في صحنك، وتقول: «لا. السنيورا كونسويلو متوعكة قليلاً هذه الليلة. لذلك فإنها لن تنضم إلينا».

«السنيورا كونسويلو؟ خالتك؟»

«نعم. إنها تريدك أن تذهب إلى غرفتها لتراها بعد العشاء».

تأكل بصمت. تشرب ذلك النبيذ السميك، تنقل نظراتك بين الحين والآخر لكي لا تراك أورا وأنت تحدّق فيها بتلك النظرة المنوّمة مغنطيسياً، والتي لا تستطيع السيطرة عليها. تريد أن تثبّت ملامح الفتاة وقسماتها في عقلك.

وفي كلّ مرّة تبعد نظرك عنها، تنسى ملامحها مرة أخرى، ويرغمك دافع لا يقاوم على أن تنظر إليها مرة أخرى. كالعادة، فهي تخفض عينيها. وبينما تبحث عن علبة السجائر في جيب

معطفك، تصادف ذلك المفتاح الكبير، وتتذكّر، وتقول لأورا: «آه! لقد نسيت أحد الأدراج في طاولة مكتبي مغلقاً. فيه أوراقي».

تدمدم: «إذاً تريد أن تخرج؟» تقول ذلك بنبرة لوم.

تبدو مرتبكاً، وتمدّ يدك إليها، والمفتاح يتدلى من إصبع واحد.

«لا يهم. بإمكان الخادم أن يذهب لإحضارها غداً».

لكنها تتحاشى لمس يدك، وتبقي يديها في حضنها. وأخيراً تنظر إلى الأعلى، ومرة أخرى تشكك في أحاسيسك، وتلقي باللوم على النبيذ في الحيرة التي اعترتك، وعلى الدوار الذي جلبته تانك العينان المشرقتان، الصافيتان، الخضراوان، وتستوي واقفاً بعد أن تنهض أورا، تمرر يدك على ظهر الكرسي الخشبي القوطي، دون أن تجرؤ على لمس كتفها العارية، أو رأسها الهامد.

تبذل محاولة لتتمالك نفسك، تحوّل انتباهك بعيداً عنها، بأن تتنصت إلى الحركة التي لا تكاد تُسمع منبعثة من باب ينتصب خلفك - لا بد أنه يفضي إلى المطبخ - أو بفصل العنصرين المختلفين اللذين يشكلان الغرفة: دائرة الضوء المحكمة حول الشمعدان الذي ينير الطاولة والحائط المنحوت، ودائرة الظلام الأكبر التي تحيط به. وأخيراً تتملكك الشجاعة

لتصعد إليها، تأخذ يدها، تفتحها، وتضع حلقة مفاتيحك في كفها الناعمة، عربون محبة.

تغلق يدها، تنظر إليك، وتهمهم، «شكراً»، ثمّ تنهض وتخرج بسرعة من الغرفة.

تجلس على كرسي أورا، تمدّ ساقيك، وتشعل سيجارة، ويغمرك شعور بالسعادة لم يغمرك من قبل، إحساس كنت تعرف أنه جزء منك، لكنك الآن فقط تشعر به بالكامل، تحرّره، تطلق العنان له لأنك تعرف هذه المرة أنه سيجاب وأنك لن تفقده. . . والسنيورا كونسويلو تنتظرك، كما قالت أورا. إنها تنتظرك بعد العشاء. . .

تغادر غرفة الطعام، تعبر الردهة والمدخل والشمعدان في يدك. الباب الأول الذي يصادفك هو باب غرفة السيدة العجوز. تقرع الباب بمفاصل أصابعك، لكنك لا تسمع جواباً. تطرق الباب ثانية. ثمّ تدفعه وتفتحه لأنها تنتظرك. تدخل بحذر، وأنت تدمدم: «سنيورا. . . سنيورا».

إنها لا تسمعك، لأنها ساجدة أمام ذلك الحائط الذي يضم أيقونات، ورأسها مستند إلى قبضتيها المكورتين.

تلمحها من بعيد: ساجدة هناك وهي في رداء نومها الصوفي الخشن، رأسها غائص بين كتفيها الضيّقتين. إنها ضامرة، بل ضعيفة، مثل منحوتة من القرون الوسطى. ساقاها

مثل عودين مصابتان بالتهاب جلدي. وبينما تفكّر في الاحتكاك المستمر لذلك الصوف القاسي على جلدها، ترفع قبضتيها فجأة وتضرب ضربات واهنة في الهواء، وكأنها تتعارك مع الصور التي يمكنك أن تتبينها عندما تقترب منها على رؤوس أصابعك: المسيح، العذراء، القديس سيباستيان، القديسة لوسيا، الملاك ميكائيل، الشياطين الضاحكة في لوحة قديمة، الأشكال السعيدة الوحيدة في تلك الأيقونة التي تصور الحزن والغضب، سعيدة لأنها تغرز معازقها في لحم الملعونين، تصبّ قدوراً من الماء المغلي عليهم، ينتهكون النساء، يسكرون، يتمتّعون بجميع الحريات المحرّمة على القديسين. تقترب من تلك الصورة المركزية، المحاطة بدموع سيدة الأحزان، دم إلهنا المصلوب، بهجة إبليس، غضب كبير الملائكة، الأحشاء المحفوظة في قنانٍ مملوءة بالكحول، القلب الفضّي: سنيورا كونسويلو، راكعة، تهدّدهم بقبضتيها، تتلعثم بالكلمات التي يمكنك أن تسمعها وأنت تقترب منها أكثر: «هيا، مدينة الله! جبرائيل، انفخ بوقك! آه، كم يستغرق العالم حتى يموت».

تلطم على صدرها حتى تنهار أمام الصور والشموع في نوبة متشنجة من السعال. ترفعها من مرفقها، وبينما تساعدها بلطف للذهاب إلى السرير، تدهش لصغر حجمها: تكاد تكون فتاة صغيرة، منثنية تماماً. تدرك أنها لولا مساعدتك، لعادت إلى سريرها حبواً على يديها وركبتيها. تساعدها في الاستلقاء على

ذلك السرير العريض الذي يتناثر فوقه فتات الخبز والوسائد القديمة المصنوعة من الريش، وتغطّيها، وتنتظر حتى يعود تنفّسها إلى طبيعته، بينما تنساب الدموع التلقائية على خديها الضامرين.

«اعذرني... اعذرني، يا سنيور مونترو. لم يبق للسيدات العجائز من متعة سوى الصلاة والعبادة ... أعطني منديلي، من فضلك».

«قالت لي السنيوريتا أورا ...»

«نعم، طبعاً. لا أريد أن أضيّع المزيد من الوقت. يجب علينا... يجب علينا أن نبدأ العمل بأسرع ما يمكننا. أشكرك».

«يجب أن تحاولي أن ترتاحي».

«شكراً ... هنا».

ترفع السيدة العجوز يدها إلى ياقتها، تفكّ أزرارها، وتخفض رأسها لتزيل الشريط الأرجواني المهترئ الذي تعطيه لك. إنه ثقيل لأن مفتاحاً نحاسياً يتدلى منه.

«في تلك الزاوية... افتح ذلك الصندوق واجلب لي الأوراق الموجودة على اليمين، فوق الأوراق الأخرى... إنها مربوطة بشريط أصفر».

«لا يمكنني الرؤية جيداً...»

«آه، نعم . . . إنني معتادة على الظلام، إلى يميني. . . سر حتى تصل إلى الصندوق. لقد أقاموا جدراناً حولنا، سينيور مونترو. أقاموها حولنا فحجبوا عنا الضوء. حاولوا إرغامي على بيع البيت، لكنني سأموت أولاً. فهذا البيت مليء بذكرياتنا. لن يخرجوني من هذا البيت إلا بعد أن أموت! نعم، هكذا. شكراً. يمكنك البدء في قراءة هذا الجزء. سأعطيك الأجزاء الأخرى لاحقاً. طابت ليلتك، سنيور مونترو، شكراً. انظر، لقد انطفأ الشمعدان. أشعله خارج الباب، أرجوك. لا، لا، يمكنك أن تحتفظ بالمفتاح. إني أثق بك».

«سنيورا، هناك جحر للجرذان في تلك الزاوية».

«جرذان؟ إني لا أذهب إلى هناك على الإطلاق».

«يجب إحضار القطط إلى هذه الغرفة».

«القطط؟ أيّ قطط؟ طابت ليلتك. سأخلد إلى النوم. إني منهكة».

«طابت ليلتك».

# ٣

في ذلك المساء بالذات، تقرأ الأوراق الصفر المكتوبة بحبر بلون الخردل، وتتخلل بعضها ثقوب سقط عليها رماد بلا اكتراث، وبعضها الآخر مليء ببقع الذباب. لا تتصف لغة الجنرال يورينت الفرنسية بالمزايا التي نسبتها له زوجته. تقول لنفسك إنك تستطيع إدخال تحسينات كبيرة على الأسلوب، وتستطيع أن تجمع رواياته عن الأحداث الماضية المشتّتة، وتربط بإحكام تلك الأحداث: طفولته في مزرعة في أواكساكا، دراساته العسكرية في فرنسا، صداقته مع الدوق دي مورني، وعلاقاته مع نابليون الثالث، وعودته إلى المكسيك للعمل في ماكسيمليان، الأرشيدوق النمساوي وإمبراطور المكسيك، المراسم والاحتفالات الإمبراطورية، المعارك، الهزيمة في عام ١٨٦٧، منفاه في فرنسا. لا شيء لم يوصف من قبل. عندما تخلع ثيابك، تسترجع أفكار السيدة العجوز المشوّهة، والقيمة التي تنسبها إلى هذه المذكرات. تبتسم عندما تأوي إلى الفراش، وتفكّر في الأربعة آلاف بيزو.

تنام ملء جفونك حتى يوقظك فيض من الضوء في الساعة السادسة صباحاً: فلا ستارة على ذلك السقف الزجاجي. تدفن رأسك تحت الوسادة وتحاول أن تنام ثانية. بعد عشر دقائق، تستسلم وتدخل الحمّام، حيث تجد جميع أغراضك مرتّبة بأناقة على الطاولة، وثيابك القليلة معلّقة في الخزانة. بعد أن تنتهي من حلاقة ذقنك، ينكسر صمت الصباح المبكّر بذاك المواء الصاخب الممض المستميت.

تحاول أن تعرف من أين ينبعث هذا الصوت: تفتح باب الممر، لكنك لا تسمع شيئاً يصدر من هناك: تلك الصيحات آتية من الأعلى، من نافذة السقيفة. تقفز إلى الكرسي، ومن الكرسي إلى الطاولة، وعندما تستند إلى رف الكتب، تستطيع الوصول إلى نافذة السقيفة. تفتح إحدى النوافذ، وتمدّ نفسك إلى الخارج لتنظر إلى ذلك الجزء من الحديقة الجانبية، تلك الباحة المكسوة ببضع أشجار السرو والأشواك حيث توجد خمس، ستّ، سبع قطط - لا تستطيع عدّها، لا تستطيع البقاء هناك أكثر من ثانية واحدة - جميعها ملتفة معاً، جميعها تتلوى في نار ملتهبة ينبعث منها دخان كثيف يعبق برائحة فراء محترق. عندما تنزل ثانية، تتساءل هل رأيت ذلك حقاً: لعلك تخيّلت ذلك بسبب تلك الصرخات المخيفة التي لا تتوقف، تخفّ، وأخيراً، تتوقّف.

ترتدي قميصك، تلمّع حذاءك بقطعة ورق، وتنصت إلى

صوت جرس يبدو أنه يمر عبر دهاليز البيت حتى يصل إلى بابك. تنظر إلى الممر. أورا تسير في الممر، تحمل الجرس في يدها. تدير رأسها لتنظر إليك وتقول إن طعام الفطور جاهز. تحاول أن توقفها لكنها تهبط الدرج الحلزوني، لا تزال تقرع ذلك الجرس المطلي باللون الأسود، وكأنها تحاول إيقاظ ملجأ أيتام بكامله، أو مدرسة داخلية برمّتها.

بعد أن تثبت كُمَّي قميصك تتبعها، لكنك عندما تصل إلى ممر الطابق السفلي، لا تجدها. يُفتح باب غرفة نوم السيدة العجوز وراءك، وترى يداً تمتدّ من وراء الباب المفتوح جزئياً، تضع نونية في البهو وتختفي ثانية، وتغلق الباب.

في غرفة الطعام، تجد طعام فطورك على الطاولة، لكن هذه المرة لم يكن هناك إلا مكان واحد. تتناول طعامك بسرعة، تعود إلى الممر، وتقرع على باب السيدة كونسويلو. صوتها الضعيف الحادّ يطلب منك الدخول. لم يتغير شيء: الظلال الدائمة، وهج أضواء النذور والأشياء الفضّية.

«صباح الخير، سينيور مونترو. هل نمت جيداً؟»

«نعم. قرأت حتى وقت متأخر».

تلوّح السيدة العجوز بيدها مثل إشارة طلب بالانصراف. «لا، لا، لا. لا تعطيني رأيك. اعمل على هذه الصفحات وعندما تنتهي سأعطيك الأوراق الأخرى».

«حسناً، سنيورا، هل يمكنني الخروج إلى الحديقة؟»

«أي حديقة، يا سينيور مونترو؟»

«الحديقة الكائنة خارج غرفتي».

«لا توجد في هذا البيت حديقة. لقد فقدنا حديقتنا عندما شيّدوا أبنية حولنا».

«أظن أنني أستطيع أن أعمل بشكل أفضل في الفناء من حيث دخلت».

«لقد زرعت ابنة أختي عدداً من نباتات الزينة هناك. لكن هذا كلّ شيء».

«حسناً، سنيورا».

«أريد أن أنال قسطاً من الراحة خلال النهار، لكن تعال لرؤيتي هذه الليلة».

«حسناً، سنيورا».

تمضي الصباح كله في العمل على هذه الأوراق، تنسخ المقاطع التي تريد الاحتفاظ بها، وتعيد كتابة المقاطع التي ترى أنها سيئة، تدخّن سيجارة تلو أخرى، وتفكّر أن تطيل عملك حتى يستمر العمل لأطول فترة ممكنة. فإذا استطعت أن توفر ما لا يقل عن اثني عشر ألف بيزو، وأن تمضي سنة لا تعمل فيها

شيئاً سوى عملك الخاص، الذي أجّلته وكدت أن تنساه. عملك العظيم عن الاكتشافات والغزوات الإسبانية في العالم الجديد. عمل يلخّص جميع السجلات التاريخية المتفرّقة، يوضحها ويجعلها مفهومة، ويكتشف أوجه الشبه بين كلّ الأعمال والمغامرات التي جرت في العهد الذهبي الإسباني، وجميع الأنماط الانسانية والإنجازات الرئيسية من عصر النهضة. وينتهي بك الأمر بأن تضع جانباً صفحات الجنرال التي تبعث على الملل، وتبدأ في جمع التواريخ وملخصات عملك. الوقت يمر ولا تنظر إلى ساعتك حتى تسمع الجرس ثانية، ثمّ ترتدي معطفك، وتهبط الدرج إلى غرفة الطعام.

ترى أورا جالسة. هذه المرة تجلس السنيورا يورينت على رأس المائدة، متدثرة بشالها ورداء نومها وقلنسوتها، منحنية فوق صحنها. لكن المقعد الرابع كان مهيأً أيضاً. تلاحظه وأنت تمر. لم يعد ذلك يضايقك. إذا كان ثمن حريّتك الإبداعية في المستقبل يكمن في تحمّل هوس هذه المرأة العجوز، فباستطاعتك أن تدفعه بسهولة. بينما تراقبها وهي تتناول حساءها محاولاً أن تخمّن عمرها. هناك وقت يستحيل بعده اكتشاف مرور السنوات، وقد عبرت السنيورا كونسويلو تلك الحدود منذ زمن طويل. لم يذكرها الجنرال في ما قرأته من المذكرات التي كتبها. لكن إذا كان الجنرال قد بلغ الثانية والأربعين في فترة الاحتلال الفرنسي، ومات في سنة ١٩٠١، بعد أربعين سنة،

فلا بدّ أنه مات وهو في الثانية والثمانين. لا بدّ أنه تزوّج السنيورا بعد الهزيمة في كويريتارو ونفيه. لكنها لم تكن سوى فتاة آنذاك. . .

التواريخ تفلت منك لأن السنيورا تتحدث الآن بصوتها الرفيع الحادّ، الذي يشبه زقزقة عصفور. إنها تتكلّم مع أورا وأنت تستمع إليها بينما تتناول طعامك، تسمع قائمتها الطويلة من الشكاوى، والآلام، والأمراض المشتبه فيها، والمزيد من الشكاوى عن تكاليف الأدوية، ورطوبة البيت، وما إلى ذلك. تريد أن تقاطع هذا الحديث البيتي لتسأل عن الخادم الذي ذهب ليجلب أغراضك البارحة، الخادم الذي لم تره قط، والذي لا يخدم على المائدة. ستسأل عنه لكنك تفاجأ بغتة بأن تدرك أن أورا، حتى هذه اللحظة، لم تنبس بكلمة واحدة، وأنها تتناول طعامها بنوع من القدرية الآلية، وكأنها تنتظر حافزاً خارجياً قبل أن تلتقط سكينها وشوكتها، وتقطع قطعة الكبد - نعم، إنها كبدة مرة أخرى، ويبدو أنها الطبق المفضّل في هذا البيت - وتنقلها إلى فمها. تنقل نظراتك بسرعة من الخالة إلى ابنة أختها، لكن السنيورا تصبح ساكنة في تلك اللحظة، لا تأتي بحركة، وفي اللحظة نفسها، تضع سكينها في صحنها، وتلبث ساكنة أيضا، وتتذكّر أنّ السنيورا خفضت سكينها قليلاً، قبل جزء من الثانية.

تسود عدّة دقائق من الصمت: تنتهي من طعامك، بينما

تجلس المرأتان هناك متصلّبتين كتمثالين، تراقبانك. وأخيراً تقول السنيورا، «إنني متعبة جداً. يجب ألا أتناول طعامي على المائدة. تعالي يا أورا، ساعديني على الذهاب إلى غرفتي».

تحاول السنيورا أن تلفت انتباهك: تنظر مباشرة إليك لكي تواصل النظر إليها، مع أن ما تقوله موجّه إلى أورا. يجب أن تبذل جهداً لتتحاشى تلك النظرة، التي تكون، مرة أخرى، واسعة، صافية، ومائلة إلى اللون الأصفر، تخلو من الأحجبة والتجاعيد التي تحجبها عادة. ثمّ تنظر إلى أورا، التي تحدّق بثبات في لا شيء، وتحرّك شفتيها بصمت. تنهض بحركة كتلك الحركات التي تربطها بالأحلام، تأخذ ذراع السنيورا العجوز المثنية، وتساعدها على الخروج ببطء من غرفة الطعام.

أنت وحدك الآن، تأخذ القهوة الموجودة هناك منذ بداية وجبة الطعام، ترشف القهوة الباردة مقطباً حاجبيك وتتساءل هل تمتلك السنيورا تأثيراً سرياً قوياً على ابنة أختها: ألا تمكث الفتاة، جميلتك أورا، بثوبها الأخضر، في هذا البيت القديم المعتم رغماً عنها. لكن سيكون من السهل عليها أن تهرب، عندما تغط السنيورا في نومها في غرفتها الظليلة. تقول لنفسك لا بد أن سيطرتها على الفتاة هائلة. تدرس المنفذ الذي يلوح في مخيلتك: لعل أورا تنتظرك كي تخلصها من القيود التي تكبّلها بها السنيورا العجوز، المجنونة، المنحرفة، لسبب لا يعلمه إلا الله. تتذكّر أورا كما كانت قبل بضع لحظات، خالية

من الروح، منوّمة مغناطيسياً، نتيجة ترهيبها لها، غير قادرة على التكلم أمام الطاغية، تحرّك شفتيها بصمت كأنها تتوسل إليك لأن تطلق يديها، تحررها؛ إنها مستعبدة إلى حد أنها تقلّد كلّ حركة تفعلها السنيورا، كما لو كان لا يسمح لها أن تفعل إلا ما تفعله السنيورا.

تثور على هذا الطغيان. تتجه نحو الباب الآخر، الباب القائم عند أسفل الدرج، الباب القائم إلى جانب غرفة السنيورا العجوز: المكان الذي لا بد أن أورا تقيم فيه، لأنه لا توجد غرفة أخرى في البيت. تدفع الباب وتفتحه، وتدخل. هذه الغرفة غارقة في العتمة أيضاً، جدرانها مطلية بالكلس، والزينة الوحيدة فيها، صورة كبيرة لمسيح أسود. إلى اليسار، ينتصب باب لا بد أنه يفضي إلى غرفة نوم الأرملة. تتوجه إليه على أطراف أصابعك، تضع يديك عليه، ثمّ تقرّر ألاّ تفتحه: يجبّ أن تكلّم أورا وحدها.

لو كانت أورا تريد أن تساعدها لأتت بنفسها إلى غرفتك. تصعد إلى هناك لوهلة، ناسياً المخطوطات المصفرّة ودفاتر ملاحظاتك، لا تفكّر إلا في جمال أورا. وكلما زاد تفكيرك فيها، أصبحت ملكك أكثر، لا لأنها جميلة، ولا بسبب رغبتك فيها فقط، بل لأنك تريد أن تحررها أيضاً: لقد وجدت قاعدة أخلاقية لرغبتك، ويخالجك إحساس بالبراءة والقناعة الذاتية. عندما تسمع الجرس يقرع مرة أخرى، لا تهبط إلى الطابق

السفلي لتناول العشاء لأنك لا تستطيع تحمّل رؤية مشهد آخر كالذي رأيته في منتصف اليوم. لعل أورا ستدرك عدم مجيئك، فتصعد لتبحث عنك بعد العشاء.

ترغم نفسك على مواصلة عملك في هذه الأوراق. وعندما تملّ منها، تخلع ثيابك ببطء، وتأوي إلى الفراش، وفي الحال، تغط في نوم عميق. وللمرة الأولى منذ سنوات، تحلم، تحلم بشيء واحد فقط، تحلم بيد هزيلة تقترب منك تحمل جرساً، تصيح أنك يجب أن تخرج، أن يخرج الجميع؛ وعندما يقترب منك ذلك الوجه بمحجري عينيه الفارغتين، تستيقظ مطلقاً صيحة مكتومة، ترشح عرقاً، وتحس بتلك اليدين اللطيفتين وهما تداعبان وجهك، وبهاتين الشفتين تدمدمان بصوت خفيض، يواسيك ويطلب منك شيئاً من العاطفة. تمدّ يديك بحثاً عن ذلك الجسد الآخر، ذلك الجسد العاري الذي يتدلى من رقبته مفتاح، وعندما تدرك المفتاح، تدرك من هي المرأة المستلقية فوقك، تقبّلك، تقبّل جسدك كله. لا تستطيع أن تراها في سواد الليل الخالي من النجوم، لكنك تستطيع أن تشمّ عبير الأزهار في الفناء في شعرها، تستطيع أن تحسّ بجسدها الناعم المتلهف بين ذراعيك؛ تقبّلها ثانية، ولا تطلب منها أن تقول شيئاً.

عندما تنفكّ عنها، منهكاً من عناقها، تسمع أول همسة تهمس بها: «أنت زوجي». توافق. تقول لك لقد حلّ الفجر،

ثمّ تتركك، وتقول إنها ستنتظرك هذه الليلة في غرفتها. توافق مرة أخرى، ثم تغطّ في النوم، تشعر بالارتياح، يزول العبء عن كاهليك، تتحرر من الشهوة، لا تزال تحسّ بملمس جسد أورا، ارتعاشتها، استسلامها. يصعب عليك أن تستيقظ. تسمع قرعات عديدة على الباب، وأخيراً تغادر السرير، متذمراً، وأنت لا تزال نصف نائم. أورا، على الجانب الآخر من الباب، تطلب منك ألا تفتحه: تقول لك إن السنيورا كونسويلو تريد أن تكلمك، وإنها تنتظرك في غرفتها.

بعد عشر دقائق تدخل حرم الأرملة. تراها متكئة على الوسائد، ساكنة، عيناها متواريتان وراء الجفنين المتهدلين، المتغضنين، الأبيضين بياض الموت. تلاحظ التجاعيد المنتفخة تحت عينيها، بشرتها المنهكة.

من دون أن تفتح عينيها، تسألك، «هل أحضرت مفتاح الصندوق؟»

«نعم، أظن ذلك... نعم، ها هو».

«تستطيع أن تقرأ الجزء الثاني. إنه في المكان نفسه. إنه معقود بشريط أزرق».

تتوجّه إلى الصندوق، هذه المرة بشيء من الاشمئزاز: فالجرذان تعجّ حوله، تنظر إليك بعيونها المتألّقة من شقوق ألواح الأرضية المتعفّنة، وتجري نحو الثقوب والفتحات في

الجدران المتعفّنة. تفتح الصندوق وتتناول الرزمة الثانية من الأوراق، ثمّ تعود إلى أسفل السرير. السنيورا كونسويلو تداعب أرنبها الأبيض. تنطلق من حنجرتها ضحكة تشبه النعيق، ثم تسألك، «هل تحبّ الحيوانات؟»

«لا، ليس كثيراً. ربما لأنني لم أقتن أياً منها في حياتي».

«إن الحيوانات أصدقاء أوفياء. رفاق أوفياء. وخاصة عندما تكبر في السن وتصبح وحيداً».

«نعم، لا بد أنها كذلك».

«تظل دائماً كما هي، يا سينيور مونترو. فهي لا تعرف التظاهر والادعاء».

«ماذا قلتِ اسمه؟»

«الأرنب؟ اسمها ساغا. إنها في غاية الذكاء. إنها تتبع غرائزها. إنها طبيعية وحرّة».

«ظننت أنه أرنب ذكر».

«حقاً؟ إذاً لا تستطيع التمييز بينها».

«حسناً، المهم هو أنك لا تشعرين بالوحدة».

«إنهم يريدوننا أن نكون وحيدين، سينيور مونترو، لأنهم

يقولون لنا إن العزلة هي الطريق الوحيد لتحقيق القداسة. إنهم ينسون أن الإغواء يزداد في العزلة».

«لا أفهم ما تقصدينه، يا سنيورا».

«آه، من الأفضل ألا تفهم. عد إلى العمل الآن، أرجوك».

توليها ظهرك. تتوجّه إلى الباب، تغادر غرفتها. في الممر تكزّ على أسنانك. لماذا لا تمتلك الشجاعة الكافية لتقول لها إنك تحبّ الفتاة؟ لماذا لا تعود وتخبرها، بشكل نهائي، وعلى نحو حاسم، أنك تزمع أن تأخذ أورا معك عندما تنهي مهمتك؟ تقترب من الباب ثانية، وتشرع في فتحه، لا تزال غير واثق. ومن خلال الشقّ، ترى السنيورا كونسويلو واقفة، بانتصاب، وقد تحولت إلى هيئة أخرى، تحمل على ذراعها سترة عسكرية: سترة زرقاء ذات أزرار ذهبية، وكتافيّات حمراء، وأوسمة تلمع عليها نسور متوّجة - سترة، تعضّها السيدة العجوز بشراسة، تقبّلها برقة، تسدلها على كتفيها، بينما تؤدّي خطوات راقصة متأرجحة. تغلق الباب.

«كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما التقيت بها»، قرأت في الجزء الثاني من المذكرات. "Elle avait quinze ans lorsque je l'ai connue et, si j'ose le dire, ce sont ses yeux verts qui ont fait ma perdition" (كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما تعرفت عليها، وأجرؤ على القول، إن عينيها

الخضراوين كانتا سبب هلاكي). عينا كونسويلو الخضراوان، كونسويلو التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها في عام ١٨٦٧، عندما تزوّجها الجنرال يورينت واصطحبها معه إلى المنفى في باريس.

"Ma jeune poupée" (دميتي الصغيرة)، كتب في لحظة إلهام، "ma jeune poupée aux yeux verts; je t'ai comblée d'amour" (دميتي الصغيرة ذات العينين الصغيرتين الخضراوين، غمرتني بالحب) ووصف البيت الذي أقاما فيه، نزهاتهما، رقصاتهما، العربات، عالم الامبراطورية الثانية، لكن كل ذلك بأسلوب مملّ. "J'ai même supporté ta haine des chats, mois qu'aimais tellement les jolies bêtes" (لقد تحمّلت كراهيتك للقطط، أنا الذي أحبّ أجمل الحيوانات قاطبة). فذات يوم وجدها تعذّب قطّة: أمسكتها بين ساقيها، وقد شمّرت تنورتها القطنية، ولم يعرف كيف يجذب انتباهها لأنه بدا له "tu faisais ça d'une facon si innocent, par pur enfantillage" (إنك تفعلين ذلك ببراءة شديدة، بصبيانية محضة). وفي الواقع، فقد أثاره ذلك كثيراً وإذا صدق ما كتبه، فقد ضاجعها في تلك الليلة بعاطفة جياشة لا مثيل لها. "parce que tu m'avais dit que torturer les chats était ta manière à toi de rendre notre amour favorable, par un sacrifice symbolique" (لأنك أخبرتني أن تعذيب القطط هو أسلوبك في

جعل حبنا جميل، بالتضحية الرمزية): لقد خمّنت ذلك، فلا بد أن يكون عمر السنيورا كونسويلو قد بلغ ١٠٩ سنوات، وأن زوجها مات منذ تسع وخمسين سنة. "Tu sais si bien t'habiller, ma douce Consuelo, toujours drappé dans de velours verts, verts comme tes yeux. Je pense que tu seras toujours belle, même dans cent ans" (إنك تعرفين جيداً، يا كونسويلو الحلوة، أنك عندما ترتدين ثوبك الأخضر بلون عينيك، تزدادين جمالاً على الدوام، حتى بعد أن تبلغي المائة سنة...). متشحة بالأخضر دائماً، ستظلين جميلة، حتى بعد انقضاء مائة سنة. "Tu es si fière de ta beauté; que ne ferais-tu pas pour rester toujours jeune" (إنك تشعرين بالزهو بجمالك، ما الذي تفعلينه كي تظلين شابة على الدوام؟)

# ٤

الآن، أصبحت تعرف السبب الذي يجعل أورا تعيش في هذا البيت: لإدامة وهم الشباب والجمال لتلك السيدة العجوز المخبولة المسكينة. لقد ظلت أورا هنا مثل مرآة، مثل أيقونة أخرى مصفوفة على ذلك الحائط المليء بالأيقونات، والقلوب، والقديسين، والشياطين المتخيّلة.

تضع المخطوط جانباً، وتهبط إلى الطابق السفلي، تقول لنفسك إنه لا يوجد إلا مكان واحد يمكن أن توجد فيه أورا في الصباح - المكان الذي خصّصته لها العجوز الجشعة.

نعم، تجدها في المطبخ، في هذه اللحظة، وهي تقطع رأس جدي: البخار المتصاعد من الحنجرة المفتوحة، رائحة الدم المسفوح، عينا الجدي المزجّجتان، كلّ ذلك يجعلك تشعر بالغثيان. وأورا مرتدية ثوباً مهترئاً ملوثاً ببقع من الدم، وشعرها مشعّث. تنظر إليك دون أن تعرفك، وتواصل عملية التقطيع.

تغادر المطبخ: هذه المرة ستكلّم السيدة العجوز، وترمي في وجهها جشعها واستبدادها. عندما تدفع الباب وتفتحه، تراها واقفة وراء ستار الأضواء، تؤدّي طقوساً في الهواء الفارغ، يداً ممدودة، وأخرى منقبضة، كأنها ترفع شيئاً، وكأن اليد الأخرى تلتف حول شيء خفي، تقرع المكان ذاته مرات ومرات. ثمّ تجفف يديها على صدرها، تتنهّد، وتبدأ بقطع الهواء ثانية، وكأنها - نعم، يمكنك أن تراها بوضوح - تسلخ جلد حيوان...

تجري في الممر، تجتاز صالة الاستقبال، وغرفة الطعام، إلى حيث تسلخ أورا جلد الجدي ببطء، إنها مستغرقة في عملها، غير عابئة بدخولك أو بكلماتك. تنظر إليك كما لو كنت مصنوعاً من الأثير.

تصعد إلى غرفتك، تدلف إليها، وتقف ملتصقاً بالباب كأن أحداً يتبعك: تلهث، ترشح عرقاً، ضحيّة شرفك، ضحية قناعتك. إذا حاول شيء أو أحد أن يدخل، فلا قِبَلَ لك بالمقاومة، وستبتعد عن الباب، تاركاً إياه يدخل. على نحو مسعور، تسحب الكرسي ذي المسند، وتضعه أمام الباب الذي لا رتاج له، تدفع السرير وتضعه أمامه، ثمّ تتهاوى على السرير، مرهقاً، وقد استنزفت طاقتك، وتغمض عينيك وتلفّ ذراعيك حول وسادتك - الوسادة التي هي ليست لك. لا شيء لك.

يتملكك الذهول، تتهاوى إلى أعماق حلم هو خلاصك الوحيد، سبيلك الوحيد لتقول لا للجنون. «إنها مجنونة، إنها مجنونة»، تكرر قائلاً حتى يغالبك النعاس، وتستطيع أن تراها ثانية، وهي تسلخ الجدي المتخيّل بسكين متخيّل. «إنها مجنونة، إنها مجنونة».

في أعماق الهاوية المظلمة، في حلمك الصامت بأفواهه الفاغرة بصمت، تراها قادمة نحوك من سواد الهاوية، تراها تحبو نحوك.

بصمت، تحرّك يدها المعروقة، تقترب منك حتى يلامس وجهها وجهك، وترى لثة العجوز الدامية. لثتها الخالية من الأسنان. تصرخ وتبتعد مرة أخرى، يدها تجرّك، تبذر الهاوية بالأسنان الصفراء التي تحملها في مئزرها الملطّخ بالدم: صيحتك هي صدى لصيحة أورا، الواقفة أمامك في حلمك، تصرخ لأن يدي أحدهم مزّقت تنورتها الخضراء المصنوعة من قماش التفتا إلى شقين، ومن ثمّ تدير رأسها نحوك.

تمسك طيّات تنورتها الممزّقة بيديها، وتستدير نحوك وتضحك بصمت، وأسنان السيدة العجوز تعلو أسنانها، بينما ساقاها، ساقاها العاريتان، تتناثران إلى قطع، وتطيران إلى الهاوية. . .

ثمة من يطرق الباب، ثمّ يتناهى إليك صوت الجرس،

جرس العشاء. رأسك يؤلمك كثيراً فلا تستطيع أن تميّز العقارب في الساعة، لكنّك تعرف أن الوقت متأخر: فوق رأسك يمكنك رؤية الغيوم الليلية وراء نافذة السقيفة. تنهض متألماً، مذهولاً وجائعاً. تضع الإبريق الزجاجي تحت الصنبور، تنتظر حتى يسيل الماء، تملأ الإبريق، ثمّ تصبّه في الحوض. تغسل وجهك، تنظّف أسنانك بفرشاة أسنانك المهترئة وبمعجون الأسنان المائل إلى الخضرة، تبلّل شعرك - لا تلاحظ أنك تفعل ذلك بالترتيب الخاطئ - وتمشّطه بدقة شديدة أمام المرآة البيضوية المثبّتة على الخزانة المصنوعة من خشب الجوز. ثمّ تعقد ربطة عنقك، وترتدي سترتك، وتهبط إلى غرفة الطعام الفارغة، حيث أعدّ مكان واحد فقط - مكانك.

بجانب صحنك، تحت منديلك، ثمة شيء تبدأ بمداعبته بأصابعك: دمية قماشية صغيرة سيئة الصنع، مليئة بمسحوق ينقط من كتفها مخاط بطريقة سيئة، وجهها مرسوم بالحبر الهندي، جسمها عار، مخطّط ببضع ضربات بالفرشاة. تتناول طعام العشاء البارد - كبدة، بندورة، نبيذ - بيدك اليمنى، وبيدك اليسرى تمسك الدمية.

تتناول طعامك بصورة آلية، دون أن تلاحظ، في البدء وضعك المنوّم مغنطيسياً، لكنك ترى بعد ذلك سبباً لنومك القهري، كابوسك، وأخيراً تماهي حركاتك في المشي أثناء النوم بحركات أورا، وحركات السيدة العجوز. تشعر فجأة

بالقرف من تلك الدمية الصغيرة الفظيعة، التي تبدأ بالارتياب في أنها مصابة بمرض سري، عدوى. تتركها تسقط على الأرض. تمسح شفتيك بالمنديل، تنظر إلى ساعتك، وتتذكّر أن أورا تنتظرك في غرفتها.

تصعد بحذر إلى باب غرفة السنيورا كونسويلو، لكنك لا تسمع صوتاً من داخل الغرفة. تنظر إلى ساعتك مرة أخرى: الساعة التاسعة تقريباً. تقرّر أن تتلمّس طريقك إلى ذلك الفناء المسقوف المعتم الذي لم تدخله منذ أتيت، من دون أن ترى شيئاً، في اليوم الذي وصلت فيه إلى هذا المكان.

تتلمس الجدران الرطبة المكسوة بالطحالب، تتنشق الهواء المعطّر، وتحاول أن تعزل العناصر المختلفة التي تتنشقها، لكي تميّز الروائح الثقيلة الفخمة المحيطة بك. بصيص عود ثقاب مرتعش يضيء الفناء الفارغ الضيّق، حيث تنمو نباتات مختلفة على جوانب التربة المفككة المائلة إلى اللون الأحمر. يمكنك إدراك الأشكال الطويلة المليئة بالأوراق التي تلقي بظلالها على الحيطان في ضوء عود الثقاب. لكنه يحترق حتى آخره، ويلسع أصابعك، وتضطر لإشعال عود آخر لرؤية الأزهار والفواكة والنباتات التي تتذكّر أنك قرأتها في السجلات القديمة، الأعشاب المنسيّة التي تنمو هنا، وتنشر شذى العطر بخمول: أوراق نبات البنج الطويلة العريضة المكسوة بالزغب؛ الجذوع الملتفة التي تنمو عليها أزهار صفر في الخارج، وحمر من

الداخل؛ وأوراق نبات الثلثان المدبّبة التي تتخذ شكل قلب؛ والزغب الرمادي لنبات عنب البوصفير بأزهاره التي تأخذ شكل عناقيد؛ وشجيرات الجرموق الكثيفة بأزهارها البيضاء؛ ونبات ست الحسن.

تنبعث إلى الحياة تحت وهج عود الثقاب الذي أشعلته، تترنح برقة مع ظلالها، وبينما تتذكّر فوائد هذه الأعشاب التي توسّع مآقي العين، وتخفّف من حدة الألم، وتخفّف من آلام الولادة، وتوفر السكينة، وتضعف الإرادة، وتسكّن من سعير الشهوة الحسية.

إنك وحيد تماماً مع العطور عندما يحترق العود الثالث. ببطء، تصعد إلى الممر، تنصت ثانية إلى باب السنيورا كونسويلو، ثمّ تتوجه على أطراف أصابعك إلى غرفة أورا. تفتح بابها من دون أن تقرعه، وتلج تلك الغرفة العارية، حيث تكشف دائرة الضوء السرير، الصليب المكسيكي الضخم، والمرأة التي تتّجه نحوك عندما تغلق الباب. تتشح أورا بالأخضر، رداء أخضر مصنوع من قماش التفتا يكشف، عندما تقترب، عن فخذيها بلون القمر الشاحب. المرأة، تكرّر عندما تقترب منك، المرأة، لا فتاة البارحة: فتاة البارحة - تلمس أصابع أورا، خصرها - التي لا يمكن أن تكون قد تجاوزت العشرين من عمرها؛ امرأة اليوم - تداعب شعرها الأسود الطليق، خديها الشاحبين - تبدو في الأربعين. بين البارحة واليوم، ثمة شيء

في عينيها الخضراوين، حول عينيها يصبح قاسياً؛ وحمرة شفتيها ضلت طريقها وتجاوزت خطوطها السابقة، وكأنها تريد أنّ تثبّتها في ابتسامة عريضة سعيدة، ابتسامة مضطربة، وكأنها، مثل تلك النبتة المنتصبة في الفناء، تجمع ابتسامتها بين مذاق العسل وطعم المرارة. لا وقت لديك للتفكير في أيّ شيء آخر.

«اجلس على السرير، يا فيليب».

«نعم».

«سنلعب. لا يتعين عليك أن تفعل شيئاً. سأفعل أنا كلّ شيء».

تجلس على حافة السرير، تحاول أن تتبين مصدر ذلك الضوء المنتشر المشعّ الذي لا يكاد يسمح لك بتمييز الأشياء في الغرفة، ووجود أورا، من الأجواء الذهبية التي تحيط بها. تراك تنظر إلى الأعلى، وتحاول أنت أن تعرف مصدر انبعاثه. من صوتها تستطيع أن تعرف أنها جاثية أمامك.

«السماء ليست عالية ولا واطئة. إنها فوقنا وتحتنا في الوقت نفسه».

تنزع لك حذاءك وجوربك وتداعب قدميك العاريتين.

تحسّ بالماء الدافئ يغسل باطن قدميك، وتبدأ بغسلهما بقطعة قماش ثقيلة. وبين الحين والآخر، تسترق النظر إلى ذلك

المسيح المنحوت من خشب أسود. ثمّ تجفّف قدميك، تأخذك بيدك، تثبّت بضع زهرات بنفسج في شعرها الطليق، وتبدأ تدندن لحناً، فالس، ترقص معها على أنغامه. مأسوراً بدندنة صوتها، تتزلقان في الإيقاع المهيب البطيء الذي تدندنه، الإيقاع المختلف تماماً عن حركات يديها الخفيفة، اللتين تفكان أزرار قميصك، تداعبان صدرك، تمتدان إلى ظهرك، وتجوسان فوقه. تدندن أنت أيضاً أغنية من دون كلمات، ذلك النغم ينبعث طبيعياً من حنجرتك: تنزلقان معاً، في كلّ مرّة تزدادان قرباً من السرير، تكتم الأغنية بقبلاتك النهمة فوق فم أورا، حتى توقف الرقص بقبلاتك المنهمرة على كتفيها ونهديها.

تحمل الرداء الفارغ بيديك. أورا، مقرفصة على السرير، تضع شيئاً على فخذيها المضمومين، تداعبه، تناديك بحركة بيدها. تداعب قطعة البسكويت الرقيقة، تكسرها على فخذيها، غير عابئة بالفتات الذي يتدحرج على ردفيها: تقدم لك نصف قطعة البسكويت الرقيقة فتأخذها، تضعها في فمك في ذات الوقت الذي تضعها هي في فمها، وتبتلعها بصعوبة. ثمّ تسقط فوق جسد أورا العاري، تسقط فوق ذراعيها العاريتين، اللتين تمتدان من جانب السرير إلى الجانب الآخر، مثل ذراعَي المسيح المصلوب المعلّق على الحائط، المسيح الأسود الذي يلتف حول فخذيه شريط قرمزي من الحرير، ركبتاه الممدوتان، خاصرته الجريحة، تاج الأشواك الكائن فوق باروكة سوداء

متشابكة نثر عليها ترتر فضي. تنفتح أورا مثل مذبح كنيسة.

تدمدم اسمها في أذنها. تحسّ بذراعَي المرأة الكاملتين حول ظهرك. تسمع صوتها الدافئ في أذنك: «هل ستحبّني إلى الأبد؟»

«إلى الأبد، يا أورا. سأحبّك إلى الأبد».

«إلى الأبد؟ هل تقسم على ذلك؟»

«أقسم».

«حتى لو أصبحت عجوزاً؟ حتى لو فقدت جمالي؟ حتى لو شاب شعري؟»

«إلى الأبد، يا حبيبتي، إلى الأبد».

«حتى لو متّ، يا فيليب؟ هل ستحبّني إلى الأبد، حتى لو متّ؟»

«إلى الأبد، إلى الأبد. أقسم على ذلك. لا شيء يمكن أن يفصل أحدنا عن الآخر».

«تعال، فيليب، تعال...»

عندما تستيقظ، تمدّ يدك لتلمس كتف أورا، لكنّك لا تلمس إلا الوسادة التي لا تزال دافئة والملاءة البيضاء التي تغطّيك.

تدندن اسمها.

تفتح عينيك وتراها واقفة عند أسفل السرير، تبتسم لكنها لا تنظر إليك. تتجه ببطء نحو زاوية الغرفة، تجلس على الأرض، تضع ذراعيها على الركبتين اللتين تبزغان من الظلام الذي يمنعك من التحديق، وتداعب اليد المتغضنة التي تتقدّم من الظلام الذي أخذ يخفّ رويداً رويداً: إنها تجلس عند قدمَي السيدة العجوز، السنيورا كونسويلو، الجالسة في كرسي ذي مسند لم تلحظه سابقاً: السنيورا كونسويلو تبتسم لك، تومئ برأسها، تبتسم لك هي وأورا التي تحرّك رأسها في حركة متناغمة مع السيدة العجوز: كلاهما تبتسمان لك، تشكرك. تستلقي على ظهرك، من دون أيّ إرادة، ظاناً أن السيدة العجوز كانت موجودة في الغرفة طوال الوقت.

تتذكّر حركاتها، صوتها، رقصتها، مع أنك لا تكفّ عن القول لنفسك إنها لم تكن هناك.

تنهض المرأتان وتقفان في ذات اللحظة، كونسويلو من على الكرسي، وأورا من على الأرض. توليناك ظهريهما، وتسيران ببطء نحو الباب المفضي إلى غرفة نوم الأرملة، تدخلان الغرفة التي ترتعش فيها الأضواء إلى الأبد أمام الصور، تغلقان الباب خلفهما، وتدعانك تنام في سرير أورا.

# ٥

نومك ثقيل وغير مريح. في أحلامك تشع كآبة غامضة. ثقل يجثم على صدرك، الحزن الذي لن يتوقّف عن كبح مخيلتك. ومع أنك تنام في غرفة أورا، فإنك تنام وحيداً، بعيداً عن الجسد الذي ظننت أنك امتلكته.

عندما تستيقظ، تبحث عن حضور آخر في الغرفة، وتدرك أنها ليست أورا هي التي تزعجك، بل الحضور المزدوج لشيء تولّد أثناء الليل. تضع يديك على جبهتك، تحاول أن تهدئ من حدة أحاسيسك المختلطة، المضطربة: تلك الكآبة الكليلة تلمح لك بصوت خفيض، صوت ذاكرة وهاجس داخلي، بأنك تبحث عن نصفك الآخر، بأن الفكرة العقيمة في الليلة الماضية هي التي خلقت ازدواجيتك.

تتوقف عن التفكير، لأن هناك أشياء أقوى من الخيال: العادات التي ترغمك على النهوض، وتبحث عن حمّام قبالة هذه الغرفة، لكن عندما لا تجد حماماً، تخرج إلى الممر، تفرك

جفنيك، تصعد الدرج، تتذوق المرارة السميكة على لسانك، تدخل إلى غرفتك، تتحسس الشعر الخشن القاسي الذي نبت على ذقنك، تفتح صنابير الحمّام ثم تنزلق في الماء الدافئ، وتسمح لنفسك بالاسترخاء والغرق في النسيان.

لكن عندما تجفّف نفسك، تتذكّر السيدة العجوز والفتاة وهما تبتسمان لك قبل أن تغادرا الغرفة يداً بيد؛ تتذكّر أنهما عندما تكونان معاً، تفعلان الشيء ذاته: تعانقان، تبتسمان، تأكلان، تتكلّمان، تدخلان، تغادران، في الوقت نفسه، كأن إحداهما تقلّد الأخرى، كأن إرادة إحداهما تعتمد على وجود الأخرى... تجرح نفسك جرحاً بسيطاً في خدك عندما تفكّر في هذه الأشياء وأنت تحلق ذقنك؛ تبذل جهداً كي تتمالك نفسك. عندما تنتهي من حلاقة ذقنك تحصي الأشياء الموجودة في حقيبة سفرك، القناني والأنابيب التي أحضرها الخادم، الذي لم تره قط، من النزل الذي كنت تقيم فيه: تغمغم أسماء هذه الأشياء، تلمسها، تقرأ المحتويات والتعليمات، تلفظ أسماء الشركات المنتجة، تحتفظ بهذه الأشياء حتى تنسى الشيء الآخر ذاك، الشيء الذي لا اسم له، الشيء المجرد من الاسم، الذي لا توجد عليه لصيقة، بدون أيّ اتساق عقلاني. ماذا تتوقّع أورا منك؟ تسأل نفسك وأنت تغلق حقيبة السفر. ماذا تريد، ماذا تريد؟

رداً على سؤالك تسمع الإيقاع المملّ للجرس في الممر

معلناً أن طعام الفطور جاهز. تتوجه إلى الباب دون أن ترتدي قميصك. عندما تفتحه تجد أورا هناك: لا بد أنها أورا لأنك ترى قماش التفتا الأخضر الذي ترتديه دائماً، مع أن وجهها مغطى بحجاب أخضر. تمسكها من رسغها، ذلك الرسغ النحيف الذي يرتعش عندما تلمسه...

«طعام الفطور جاهز»، تقول بأوهى صوت تسمعه في حياتك.

«أورا، لنكفّ عن التظاهر».

«التظاهر؟»

«أخبريني هل السنيورا كونسويلو لا تسمح لك بمغادرة البيت، أن تعيشي حياتك الخاصة. لماذا يجب أن تكون موجودة عندما نكون أنا وأنت... أرجوكِ قولي لي إنك ستذهبين معي عندما...»

«نذهب؟ إلى أين؟»

«نخرج من هذا البيت. نخرج إلى العالم لنعيش معاً. يجب ألا تشعري بالارتباط بخالتك إلى الأبد... لماذا كلّ هذا التفاني والإخلاص؟ هل تحبّينها إلى هذه الدرجة؟»

«أحبّها؟»

«نعم. لماذا يجب عليكِ أن تضحّي بنفسكِ بهذه الطريقة؟»

«أحبّها؟ هي التي تحبّني. إنها تضحّي بنفسها من أجلي».

«لكنها امرأة عجوز، تكاد تكون جيفة. لا يمكنك أن...»

«لديها حياة أكثر مما لديّ. نعم، إنها عجوز وبغيضة... فيليب، لا أريد أن أصبح... أن أصبح مثلها... أخرى...»

«إنها تحاول أن تدفنك وأنت على قيد الحياة. يجب أن تولدي من جديد، يا أورا».

«يجب أن تموت قبل أن أولد من جديد... لا، إنك لا تفهم. إنس الموضوع يا فيليب. فقط ثق بي».

«أرجوكِ فسّري لي الأمر».

«ثق بي. إنها ستخرج اليوم طوال النهار».

«هي؟»

«نعم، الأخرى».

«ستخرج؟ لكنّها لم...»

«نعم، إنها تخرج في بعض الأحيان. إنها تبذل مجهوداً كبيراً لكي تخرج. إنها ستخرج اليوم. ستبقى خارج البيت طوال النهار. يمكننا أنا وأنتَ...».

«أن نذهب؟»

«إذا أردت».

«حسناً... ربما ليس بعد. فأنا مرتبط بعقد. لكن عندما أنهي عملي، عندئذ...»

«آه، نعم. لكنّها ستكون خارج البيت طوال النهار. يمكننا أن نفعل شيئاً».

«ماذا؟»

«سأنتظرك هذا المساء في غرفة نوم خالتي. سأنتظرك كعهدي دائماً».

تستدير، وتقرع جرسها مثل المصابين بداء الجذام الذين يقرعون أجراسهم معلنين عن اقترابهم، وإبلاغ الغافلين عن وجودهم: «أخلوا الطريق، ابتعدوا عن الطريق». ترتدي قميصك ومعطفك، وتتبع صوت الجرس الذي يدعوك إلى غرفة الطعام. في الرواق، تتوجّه الأرملة يورينت نحوك، تنحني، تتكئ على عكاز ذي قبضة مستديرة، مرتدية رداء أبيض قديماً، وحجاب شاش ملوّثاً رثّاً. تتجاوزك من دون أن تلقي عليك نظرة، تمخط في منديلها، تمخط وتبصق. تهمهم، «لن أكون في البيت اليوم، يا سيد مونترو. لديّ ثقة تامة بعملك. أرجو أن تواصل عملك. يجب أن تنشر مذكرات زوجي».

تذهب، وهي تطأ السجادة بقدميها الصغيرتين اللتين تشبهان

قدمي دمية قديمة، تتكئ على عكازها، تبصق وتعطس كأنها تريد طرد شيء من رئتيها المحتقنتين. تبذل جهداً إرادياً لتمسك نفسك عن ملاحقتها بعينيك، على الرغم من الفضول الذي ينتابك عندما ترى ثوب الزفاف المصفرّ الذي أخرجته من قعر ذلك الصندوق القديم الموجود في غرفة نومها.

لا تكاد تلمس القهوة الباردة التي تنتظرك في غرفة الطعام. تجلس قرابة ساعة في الكرسي ذي الظهر الطويل المقوّس، تدخّن، تنتظر الأصوات التي لا تسمعها أبداً، حتى تتأكد أخيراً أن السيدة العجوز غادرت البيت، ولا تستطيع أن ترى ما ستفعله. خلال الساعة التي انقضت، كنت تمسك مفتاح الصندوق بيدك، أما الآن فإنك تنهض وتجتاز الرواق إلى الممر بصمت، حيث تنتظر خمس عشرة دقيقة أخرى - تعلمك ساعتك الزمن - وأذنك ملتصقة بباب السنيورا كونسويلو. ثمّ تفتحه ببطء لتتمكن من أن تتبيّن، من وراء شبكة العنكبوت، الشموع، والسرير الخاوي الذي يقبع فوقه أرنبها وهو يقضم جزرة: السرير الذي يتناثر عليه دائماً فتات الخبز، وتبدأ بلمسه بحذر، ويخيّل إليك أن السيدة العجوز قد تكون مختبئة بين طيات الملاءات. تتوجّه إلى الزاوية حيث يقبع الصندوق، تدوس على ذيل أحد تلك الجرذان. يصيح، ويهرب من تحت قدمك، ويسرع لتحذير الجرذان الأخرى. تُدخل المفتاح النحاسي في فتحة القفل الصدئ، ترفع القفل، ثم ترفع الغطاء،

تسمع صرير المفصلات القديمة المتصلّبة. تُخرج الجزء الثالث من المذكرات - إنها مربوطة بشريط أحمر - وتكتشف تحتها تلك الصور، تلك الصور القديمة الجافة، الهشّة، ذات الزوايا المهترئة. تلتقطها من دون أن تنظر إليها، تضم الكنز كله إلى صدرك، وتخرج مسرعاً من الغرفة من دون أن تغلق غطاء الصندوق، ناسياً جوع الجرذان. تغلق الباب، تستند إلى الحائط في الممر كي تلتقط أنفاسك، ثمّ تصعد الدرج إلى غرفتك.

هناك تقرأ الصفحات الجديدة، التتمة، أحداث قرن معذّب. بلغته المنمقة، المبهرجة، يصف الجنرال يورينت شخصية يوجينيا دي مونتيخو، يعبّر عن احترامه لنابليون الابن، يستذكر أكثر خطاباته العسكرية التي يعلن فيها حرب فرانكو البروسية، يملأ صفحات كاملة عن حزنه للهزيمة، ويعظ جميع الشرفاء عن الوحش الجمهوري، ويرى بصيص أمل في الجنرال بولانجير، ويتحسر على المكسيك، ويعتقد أنه في قضية دريفوس، شرف - دائماً تلك الكلمة «شرف» - الجيش تتكرر كثيراً.

تتفتت الصفحات الجافة الهشّة عندما تلمسها: لا تحترمها الآن، بل لا تبحث إلا عن المرأة ذات العينين الخضراوين لتظهر ثانية. «أعرف لماذا تبكي في بعض الأحيان يا كونسويلو. لم أتمكن من منحكِ أطفالاً، مع أنكِ مفعمة بالحياة...»، ولاحقاً: «كونسويلو، يجب ألا تغضبي الرب. يجب أن

نتصالح. ألا تكفي محبتي؟ أعرف أنكِ تحبينني. إني أشعر بذلك. لا أطلب منك أن تنسحبي، لأن ذلك يشكّل إهانة لك. لا أطلب منكِ إلا أن تري، في الحبّ العظيم الذي تقولين إنك تكنّينه، شيئاً كافياً، شيئاً يمكنه أن يملأ كلينا، من دون اللجوء إلى تخيلات مريضة...». وفي صفحة أخرى: «قلت لكونسويلو إن هذه الأدوية غير ناجعة على الإطلاق. فهي تصرّ على زراعة أعشابها في الحديقة. تقول إنها لا تخدع نفسها. فالأعشاب ليست لتقوية الجسد، بل لتقوية الروح». وفي ما بعد: «وجدتها تهذي، تعانق الوسادة. صاحت: «نعم، نعم، نعم، لقد فعلتها، لقد خلقتها ثانية!» أستطيع أن أستحضر روحها، أستطيع أن أمنحها حياة من حياتي. كان من الضروري استدعاء الطبيب. قال لي إنه لم يتمكن من تهدئة روعها، لأنها كانت تحت تأثير مخدر، لا تحت تأثير منشطات". وأخيراً: «في وقت مبكّر من صباح هذا اليوم، وجدتها تمشي حافية في الممر. أردت أن أوقفها. سارت من دون أن تلتفت إليّ، لكن كلماتها كانت موجّهة إليّ. وقالت: «لا توقفني، إني ذاهبة إلى شبابي، وشبابي قادم صوبي. إنه قادم، إنه في الحديقة، إنه عائد..» كونسويلو، حبيبتي كونسويلو المسكينة! حتى الشيطان كان ملاكاً ذات يوم».

لم يعد هناك المزيد منها. تختتم مذكرات الجنرال يورينت بهذه الجملة: «كونسويلو، الشيطان كان ملاكاً ذات يوم...»

وبعد الصفحة الأخيرة، تأتي الصور. صورة رجل محترم عجوز بزي عسكري، صورة قديمة مكتوب على إحدى زواياها هذه الكلمات: «مولان، صورة، ٣٥ بولفار هاوسمان»، التاريخ «١٨٩٤». ثمّ صورة أورا، صورة أورا بعينيها الخضراوين، وشعرها الأسود مضموم في جدائل، تستند إلى عمود دوريك وقد رسم في الخلفية مشهد طبيعي: مشهد صخرة لوريلي على الضفة اليمنى لنهر الراين. ثوبها مزرر حتى الياقة، تمسك بيدها منديلاً، تضع حشية على كتفها: أورا والتاريخ «١٨٧٦» بحبر أبيض، وعلى ظهر الصورة القديمة، كلمات مكتوبة بخط عنكبوتي: "Fait pour notre dixième anniversaire de mariage" (أُخذت بمناسبة عيد زواجنا العاشر) وتوقيع بالخطّ نفسه، «كونسويلو يورينت». وفي الصورة الثالثة ترى أورا والرجل العجوز، لكنهما هذه المرة يرتديان ثياباً عادية، يجلسان على مقعد في حديقة. أصبحت الصورة مغبشة قليلاً: لا تبدو أورا شابة كما كانت تبدو في الصورة الأخرى، لكنّها هي، إنه هو... إنه أنت. تحدّق وتحدّق في الصور، ثمّ ترفعها إلى الضوء المتسلل من نافذة السقفية. تغطّي لحية الجنرال يورينت بإصبعك، وتتخيّله بشعر أسود، وتكتشف نفسك: مغبشاً، ضائعاً، منسياً، لكنّك أنت، أنت.

رأسك يدور، تهيمن عليك إيقاعات ذلك الفالس البعيد، رائحة النباتات المعطّرة الرطبة: تتهالك منهكاً على السرير،

تلمس خديك، عينك، أنفك، كما كنت تخشى أن تكون يداً غير مرئية قد مزقت القناع الذي تضعه منذ سبع وعشرين سنة، الملامح الكرتونية التي أخفت وجهك الحقيقي، مظهرك الحقيقي، المظهر الذي كنته لكنك نسيته بعدئذ. تدفن وجهك في الوسادة، تحاول أن تمنع رياح الماضي من اقتلاع ملامحك، لأنك لا تريد أن تفقدها. تستلقي على السرير ووجهك مدفون في الوسادة، تنتظر ما سيأتي، ما لا تستطيع أن تحول دون وقوعه. لا تنظر إلى ساعتك مرة أخرى، ذلك الشيء العديم الفائدة الذي يقيس الزمن على نحو مضجر وفق الغرور البشري، هذان العقربان الصغيران اللذان يحدّدان الساعات الطويلة التي اخترعت لتمويه مرور الزمن الحقيقي، الذي يتسابق بسرعة قاتلة وصفيقة لا يمكن لأي ساعة قياسه على الإطلاق. حياة، قرن، خمسون سنة: لم يعد بإمكانك تخيّل تلك المقاييس الكاذبة، لا تستطيع أن تمسك بين يديك ذلك الغبار الذي لا جسم له.

عندما ترفع رأسك عن الوسادة، تجد أنك في الظلام. فقد هبط الليل. هبط الليل. وراء نافذة السقيفة، الغيوم السود السريعة تخفي القمر، الذي يحاول أن يحرر نفسه، ليكشف عن وجهه الشاحب، المستدير، الباسم. إنه يهرب لحظة فقط، لكن السحب تخفيه ثانية. لم يعد أمامك أي أمل. حتى إنك لا تنظر إلى ساعتك. تهبط الدرج، تخرج من زنزانة السجن تلك بأوراقها القديمة، والصور القديمة الباهتة، وتتوقّف عند باب

غرفة السنيورا كونسويلو، وتنصت إلى صوتك، صامتاً متحولاً إلى شخص آخر، بعد ساعات الصمت كلها: «أورا. . .»

مرة أخرى: «أورا. . .»

تدخل الغرفة. انطفأت أضواء النذور. تتذكّر أن السيدة العجوز ستغيب طوال اليوم: ومن دون حرصها الورع، احترقت الشموع كلّها. تتلمّس طريقك إلى الأمام في الظلام نحو السرير.

ومرة أخرى: «أورا. . .»

يتناهى إلى سمعك صوت حفيف خفيف لقماش التفتا، والتنفّس الذي يحافظ على التوقيت مع توقيتك. تمدّ يدك لتلمس رداء أورا الأخضر.

«لا. لا تلمسني. استلق إلى جانبي».

تجد حافة السرير، تمدّ ساقيك، وتظل ممدداً هامداً. تعتريك رعدة من الخوف: «قد تعود في أيّ دقيقة».

«إنها لن تعود».

«مطلقاً؟»

«إني منهكة. إنها منهكة. لن أتمكن من إبقائها معي لأكثر من ثلاثة أيام».

« أورا. . . »

تريد أن تضع يدك على نهدَي أورا. توليك ظهرها: يمكنك أن تميّز الفرق في صوتها.

«لا. . . لا تلمسني».

«أورا. . . . إني أحبّك».

«نعم. إنك تحبّني. لقد قلت البارحة إنك ستحبّني دائماً».

«سأحبّكِ دائماً، دائماً. أحتاج إلى قلبك، جسدك. . . »

«قبّل وجهي. وجهي فقط».

تقرّب شفتيك من الرأس المستلقي إلى جانبك. تمسّد شعر أورا الأسود الطويل. تمسك تلك المرأة الهشّة من كتفيها، متجاهلاً تذمرها. تمزّق رداءها التفتا، تعانقها، تشعر بها صغيرة وضائعة وعارية بين ذراعيك، بالرغم من تأوهاتها المقاومة، احتجاجاتها الواهنة، تقبّل وجهها من دون تفكير، من دون تمييز، وتلمس نهديها الذابلين عندما يتسلل شعاع ضوء القمر ويفاجئك، يشعّ من خلال شقّ في الحائط الذي قضمته الجرذان وأحدثت فيه فتحات، عين تدع شعاع ضوء القمر الفضي يتسلل. يهبط على وجه أورا المتآكل، هشّاً ومفتتاً ومصفرّاً مثل أوراق المذكرات، .متغضّناً بالتجاعيد مثل الصور المتغضنة. تتوقّف عن تقبيل هاتين الشفتين الهزيلتين، تلك اللثة الخالية من

الأسنان: شعاع القمر يريك جسد العجوز العاري، جسد السنيورا كونسويلو، مترهلاً، منهكاً، قديماً، ضئيلاً، مرتعشاً، لأنك تلمسها. تحبّها، لقد عدت أنت أيضاً. . .

تغمر وجهك، عيناك مفتوحتان، في شعر كونسويلو الأبيض الفضّي، وتعانقها ثانية عندما تغطّي السحب القمر، عندما تختفيان كلاكما مرة أخرى، عندما يسيطر الظلام على ذاكرة الشباب، الشباب الذي تجسد ثانية.

«إنها ستعود يا فيليب. سنعيدها معاً. دعني أستعيد قوّتي وسأعيدها. . .»

# هذا الكتاب

تقرأ الإعلان: لا يمكنك أن ترى عرضاً كهذا كلّ يوم. تقرأه وتعيد قراءته. يبدو أنه إعلان أُعِدَّ خصيصاً لك، لا لأحد غيرك. حتى إنك لا تلاحظ أن رماد سيجارتك يسقط في كوب الشاي الذي طلبته في هذا المقهى الرخيص غير النظيف. تعيد قراءته. «مطلوب شاب متخصص في التاريخ، أنيق، يعمل بضمير، يجيد اللغة الفرنسية الدارجة إجادة تامة».



منشورات 2013